

Rachid Jarmouni\*\*

رشيد جرموني\*

## التصوف والسياسة الدينية بالمغرب

### Sufism and Religious Policy in Morocco

الكتاب	: التصوف والسياسة الدينية بالمغرب
الكاتب	: مجموعة مؤلفين
المنسق	: محمد جحاح
الناشر	: إفريقيا الشرق
مكان النشر	: الدار البيضاء/ المغرب
تاريخ النشر	: 2016
عدد الصفحات	: 192

جراء التحولات العميقة التي يشهدها العالم المعاصر، خصوصاً بعد موجة الحداثة وما بعد الحداثة، وما أفرزته من تداعيات في مجالات شتى، وعلى رأسها المجال الديني. فإذا كانت الفرضيات التي عبّر عنها الرعيل الأول لمؤسسي السوسولوجيا (كارل ماركس ودوركايم وأوغست كونت، ..)، وبشكل أقل حدة عند ماكس فيبر، خصوصاً في كتاباته الأولى، قد تنبأت بحصول «أفول للدين»، أو ما سُمّاه فيبر، عبر مفهومه الجدلي، «إزالة السحر عن العالم» (Désenchantement du Monde)<sup>(1)</sup>، جراء تزايد تقسيم العمل والتمدين والانفجار المعرفي والتطور الصناعي، وخروج المرأة للعمل،

### على سبيل الاستهلال:

#### في سياق الكتاب وخلفيته النظرية

يشكّل هذا الكتاب واحداً من المؤلفات السوسولوجية التي ناقشت المسألة الدينية في علاقتها بالتصوف في عالمنا اليوم، وفي المغرب تحديداً. ويأتي هذا المؤلف الجماعي، الذي سهر على تنسيقه محمد جحاح، المتخصص بسوسولوجيا التدين والتصوف، ليقدم قراءة موضوعية لما يعتمل في هذا الحقل من تحولات كبرى؛ فغير خافٍ على أحد أننا نعيش موجه «العودة» إلى الدين أو «اللجوء» إلى الدين، وذلك

\* باحث في سوسولوجيا الأديان، أستاذ علم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة مولاي إسماعيل بمكناس- المغرب.  
\*\* Researcher in Sociology of Religion, Professor of Sociology at the Faculty of Arts and Human Sciences at Moulay Ismail University, Meknes, Morocco.

مسألة التصوف ومكانتها في المجتمع المغربي، وهي موضوع هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القراء في العالم العربي. فما أهم الأطروحات التي يناقشها هذا الكتاب؟ وما الجديد الذي يحمله؟ وما نوعية المقاربات التي اعتمدت في إنتاجه؟ وأخيراً ما هي أهم الملاحظات النقدية التي يمكن توجيهها لهذا العمل؟

## في السياق السوسيوثقافي لوضعية التصوف في المغرب

تأثرت وضعية التصوف - كحالة مجتمعية وسوسيوثقافية - بكثير من التحولات التي عرفها المغرب، بدءاً من القرن السادس عشر، إلى مطلع الألفية الثالثة، حيث إن التصوف والزوايا شكلا على مر هذا التاريخ مجالاً للاحتفاء من بطش السلطة (أو المخزن) تارة ومن بطش الاستعمار الفرنسي أو الإسباني تارة أخرى. واليوم يقدم التصوف كواجهة لمواجهة التطرف الديني ممثلة في الحركات السلفية الجهادية، أو في حركات الإسلام السياسي التي أرادت أن تفرغ الدين من قيمه الروحية والحضارية والراقية إلى قيم مبتذلة وممرغة في اللعبة السياسية وفي صراعات القوة، من أجل تحقيق حلم «الدولة الإسلامية المنشودة». لهذا، فإن الرهان على التصوف والصوفية، كأحد التعبيرات الدينية، يقدم اليوم كنوع من الخلاص من كل «الشبهات» التي لحقت بصورة الإسلام والمسلمين. والأمر ما عاد مقتصرًا في هذا الرهان على مؤسسة الدولة ممثلة في «إمارة المؤمنين» - خصوصاً مع إصلاح الحقل الديني - بل امتد ليشمل مطلباً لكثير من المثقفين والمفكرين، بل حتى بعض حركات الإسلام السياسي.

انسجماً مع ما تطمح إليه السوسولوجيا من مواكبة لمجمل التحولات التي يشهدها الحقل الديني في المغرب، يحاول الكتاب أن يناقش هذا المعطى في دراسات علمية جاءت في

وانتشار العقلنة والبيروقراطية في الحياة العامة، فإن هذا التحليل سيتعرض بدءاً من ستينيات القرن الماضي لموجة من الانتقادات، بل وحتى التجاوز، نظراً إلى ما حصل من تطورات نوعية في العلاقة بين الدين والمجتمع، وبروز أشكال من الارتفاء في الديني حتى في الدول التي كانت تُعتبر «لائكية» أو «شيعية». كل ذلك أتاح للباحثين في الغرب تأملاً جيداً ونقدياً للمقولات التفسيرية التي حملها الرعيل الأول لمؤسسي السوسولوجيا، وأثار موجة من النقاش العلمي الذي اعتمد آليات بحثية إمبريقية للتأكد من صلاحيات هذه الفرضيات. ولعل إطلالة على كتاب *The Desecularization of the World: Politics (إزالة علمانية العالم وبروز الدين في السياسات العالمية)* للباحث بيتر برغر، تبين بوضوح هذا النقاش ومستوياته.

إننا في التجربة المغربية وفي العالم الإسلامي، لم نعرف مثل هذا المد والجزر في علاقة المجتمع بالدين، على اعتبار أن الدين كان دائماً المؤطر للبنى الثقافية والاجتماعية ولمجمل الذهنيات، وهو ما تثبته كثير من الدراسات التي أنجزت في سياقات تاريخية ممتدة، بدءاً من البحث الكولونيالي إلى البحث السوسولوجي الوطني إلى الآن. لكن رغم أهمية هذا المعطى (أي حضور الدين في المجتمع المغربي)، فإن الأمر الذي نود أن نشيره في تقديمنا لهذا الكتاب هو أن التأمل في مجمل التجارب السوسيوثقافية التي مرت بها علاقة الدين بالمجتمع المغربي، تؤكد حدوث تحولات وتغيرات وانزياحات كثيرة ومتعددة<sup>(2)</sup>؛ فالدين بقي محافظاً على مكانته في البنى الثقافية للمجتمع، ومع ذلك، فإن طريقة تمثله وممارسته ومعاشته تقلبت عبر مسارات معقدة جداً ومرعبة في الآن نفسه. ورغم أن موضوعنا لا يشمل جميع مظاهر هذا التحول، فإننا نود التوقف عند

نقدية لا تنمهي لا مع الطرح الكولونيالي ولا مع الطرح الوطني، بل تقدم رؤية علمية هادئة لموضوع حساس جداً، حيث إن الباحث مَيَّز بين ثلاث مرجعيات كانت تؤطر علاقة الزوايا بالسلطة والمجتمع، وهي: «المرجعية الصلحاوية التي تمثل الأساس الكرامي الخوارقي» في بنية الزاوية، ثم المرجعية الطرقية التي تمثل الأساس المذهبي الأيديولوجي، وأخيراً المرجعية الشرفاوية باعتبارها تجسد الأساس الجينولوجي في بناء الزاوية». هكذا، ومن خلال هذا الطرح، يقدم المقال قراءة سوسولوجية للزوايا وللطرق الصوفية ولأهم مداخلة التي عبأتها في علاقتها بالمجتمع والسلطة.

أما في ما يخص المساهمة الثانية التي جاءت تحت عنوان «تدبير الحقل الديني بين الاختيارات والتحديات»، فقد ركز كاتبها محمد ياسين على ما يسمّى في الأدبيات السوسولوجية «الحقل الديني» وما طرأ عليه من إصلاحات وتدخلات، خصوصاً بعد أحداث 16 أيار/مايو 2003 الإرهابية في المغرب، حيث يرصد المقال، بنوع من الدقة والمتابعة الميدانية، ما تمخض عن هذه السياسة الدينية «الإصلاحية»، لا من حيث التدبير المؤسسي ولا من حيث التدبير السياسي ولا من حيث التدبير الديني المباشر. وهكذا، سيركز الباحث على أهم المداخل التي اعتمدها الفاعل الرسمي في تدبير مرحلة ما بعد 16 أيار/مايو، حيث وقف عند الاختيارات التي اتخذها الفاعل الرسمي لإصلاح الحقل الديني، ولا سيما في الدعم المباشر للمكوّن الصوفي عبر تجميع زواياه، وعبر التمكين له علمياً وإعلامياً، بما يعزز مقولة «الأمن الروحي» للمغاربة. أما بخصوص التحديات، فقد توقف الكاتب عند «وضعية التنوع الثقافي والقيمي» الذي برز في الآونة الأخيرة، وبدأ يطرح مسألة التواءم والتطابق بين التعبيرات المجتمعية

تسع مساهمات متعددة التخصصات، كالفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ والأدب، وغيرها، ليؤكد مسألة في غاية الأهمية، وهي أن الظاهرة الصوفية، كإحدى الظواهر المركبة، تحتاج إلى مقاربة متعددة التخصصات لكي يستطيع الباحثون امتلاك ناصيتها وتفكيك جميع الخيوط الظاهرة والخفية التي تؤثر في الظاهرة وفي علاقتها بمجمل الأنساق.

## وقفه مع مساهمات الكتاب

لكي نقرب القارئ أكثر من محتويات الكتاب، سنحاول أن نقدم ملخصاً لكل مداخلة على حدة؛ فمساهمة محمد جحاح الممهورة بعنوان «الزاوية والمخزن أو جدلية السلطة والمجتمع بالمغرب الما قبل كولونيالي: مراجعة نقدية للأطروحتين الكولونيالية والوطنية»، قدمت طرحاً تفكيكياً ونقدياً لكل من الأطروحة الكولونيالية والأطروحة الوطنية في علاقتها بالتصوف والرهانات المختلفة التي كان يسعى للوصول إليها المشتغلون بالبحث العلمي، سواء الكولونيالي أو الوطني. فبخصوص الطرح الأول (الكولونيالي)، ناقش جحاح كلاً من التصور الصراعى بين القبيلة والمخزن من جهة، والزاوية في مواجهة المخزن أو من خلال مواجهة هذا الأخير للزوايا من جهة أخرى، أو من خلال الطرح الوطني، الذي كان يقدم نفسه على أنه يمثل قراءة «موضوعية» لعلاقة الزوايا بالمخزن، والتي يطبعها التحالف الاستراتيجي. بل أكثر من ذلك، ستصبح «الزوايا جزء [أ] لا يتجزأ من النسق الأيديولوجي والسياسي للنظام»، وهذا يعني أن كلتا القراءتين تفضي إلى استخلاص النتيجة عينها، وهي أن تعاطي الباحثين مع المسألة الزاوية لم يسلم من تحيزات «أيديولوجية»، وهو ما أعاق فهمنا لوضعها في سياق التحولات التي كان المغرب يمر بها. ولهذا يقترح الباحث جحاح قراءة

ودورها الاجتماعي والسياسي، بل وحتى الاقتصادي، خصوصاً في مرحلة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وبمقاربة تنهل من التاريخ الاجتماعي والفلسفي، قدم محمد أبو حفص، الباحث في جامعة مولاي إسماعيل، مساهمة ركزت على «التصوف بين سلطة الدين والسياسية: محنة ابن مسرة ومدسته نموذجاً»، حيث توقف عند أحد رواد التصوف المتممين إلى القرن الثالث الهجري، والذي ينحدر من الأندلس (قرطبة تحديداً)؛ إذ بين الباحث أبو حفص أن «ابن مسرة» اجتمعت فيه جميع الخصال التي أهلتها لكي يحظى بشرف التقدير المجتمعي، فهو كان من أهل العلم والصلاح والحكمة، وقد تعرض لمحن كثيرة، نظراً إلى كونه صوفياً معتزلياً، مخترقاً بذلك القاعدة في المغرب الكبير الذي لم يكن يعرف غير التصوف على طريقة الجنيد. ولهذا السبب، كان محط اتهام وتخوين وتجريح. وتأتي مساهمة أبو حفص لتوضح جوانب مشرقة من تاريخ هذا العالم.

أما رشيد جرموني، فقد تناول من خلال مساهمته المعنونة بـ «تحولات الحقل الديني: الفاعل الصوفي نموذجاً»<sup>(3)</sup>، مجمل التحولات الدينية التي عرفتها المملكة المغربية، بدءاً من سنة 2004، أي سنة إطلاق مشروع «إصلاح الحقل الديني»، حيث توقف الباحث عند أهم المعالم الكبرى لهذا الإصلاح، تلك التي تجلت في المدخل المؤسساتي ثم المدخل الاجتماعي/السياسي، وأخيراً المدخل الإعلامي. ثم تناول الرهانات المختلفة التي وضعها الفاعل الرسمي (إمارة المؤمنين) على الفاعل الصوفي من خلال ثلاثة أهداف: أولاً، دعم مشروعية الملك الدينية؛ ثانياً، تقوية البُعد التعبدي الزهدي؛ ثالثاً، تحديث الأفراد والمجتمع، بما يتضمنه

والمطلب الأيديولوجي للدولة، ممثلاً بالدين الإسلامي. لهذا، فإن الباحث لا يطمئن إلى ما هو رقمي وكمي في هذه الخطة «الإصلاحية»، بقدر ما يحاول أن يقارب الموضوع من وجهة نظر سوسيولوجية منفتحة ومرنة في الآن نفسه.

نظراً إلى أهمية البُعد السوسيو-أنثروبولوجي في مقاربة المسألة الصوفية في مغرب الأمس واليوم، غاص بن محمد قسطاني في الموضوع - الذي اختار له عنواناً معبراً جداً هو: «القايد والولي والسلطان»، لكي يوضح بصورة جيدة الوظائف التي كانت تقوم بها الزوايا والطرق الصوفية في مجتمعات متعددة وغير منظمة وغير عقلانية، فيؤكد أن الوقوف عند هذه المؤسسات التقليدية، من خلال التركيز على شخصية سيدي محمد العربي الدرقاوي، يشكل لحظة تأملية في مسار شخصية «صلحاوية» ومتملكة سلطة الرمزي، بل وحتى المادي، وتوظيف ذلك في تثبيت دعائم السلطان، أو في اتجاه الوقوف في وجه طغيان هذا الأخير، والاحتماء بالأمة من خلال الاندماج الذي ميز علاقة الشيوخ الصوفيين بأفراد المجتمع، ولأن الشيخ الصوفي مثل- عبر التاريخ - ملاذاً للأمة ومرشداً لها وموجّهاً لمصالحها.

في إطار المقاربات التاريخية أيضاً، نتوقف عند مساهمة الباحث محمد الحمدوشي، المنتسب إلى الزاوية الحمدوشية، وهي بعنوان «التصوف بين التدين والاستثمار في المقدس: طرق التصوف بمكناس نموذجاً»، لنرى محاولته تقديم فكرة عن نشأة الزاوية الحمدوشية من خلال شيخها سيدي علي بن حمدوش الذي كان أحد الشيوخ والرجال الصوفية العريقة في العلم والأدب والأخلاق والصلاح. ولعل المثير في المقال هو ما ذكره الباحث من امتداد هذه الزاوية وإشعاعها خارج مدينة مكناس،

للهوية الذاتية»، وهما مساهمتان ربما تبدوان بعيدتين عن إشكالية الكتاب، أي التصوف، لكن بالتأمل في كليتهما يظهر أنهما ناقشتا الموضوع (التصوف) لكن بطريقة خاصة وبمقاربة ماكروسوسيولوجية. وهكذا نجد أن المساهمة الأولى للباحث الصنهاجي تركز في الأساس على مسألة «التوتر» القائم في المغرب بين المعتقد والتمثل للدين الإسلامي من جهة والسلوك والممارسة من جهة أخرى، حيث يمكن اعتبار هذه الإشكالية واحدة من الإشكاليات التي تستحق كل المتابعة. وقد وُفق الباحث في تقديم بعض الإجابات عن هذه الإشكالية، إذ أشار إلى مجمل السياقات التي تتشابك مع الموضوع الذي لا يمكن فهم طبيعته إلا بالاعتماد على رؤية شمولية في الفهم والتفسير والتحليل. بناء عليه، توصل الباحث إلى أن طبيعة التكون الديني للإسلام في المغرب، وبطبيعته التاريخية، أوجد مجموعة من التوترات التي لا يقيم لها المغربي أي اعتبار لأنه متأثر بالسجل الثقافي أكثر من تأثره بالسجل الديني في صيغته الأوثودوكسية.

أما المساهمة الثانية والأخيرة في هذا الكتاب، فركزت على عناصر التحول الديني عند الشباب التونسي. وقد أبرز من خلال نتائج البحث الميداني الكيفي، كيف أن الشباب اليوم أصبح متحللاً من جميع المؤسسات التقليدية، أو حتى الحديثة، لأنه يريد أن يقيم علاقة فردانية مع الدين؛ إنه يريد أن يحقق ذاته في تدين يناسب عصره، وهو ما يمكن تسميته بظاهرة «التدين الفردي» أو التدين ما بعد الحداثي. وهذا ما يعكس في العمق الحاجة الماسة إلى نوع من النقاش العلمي السوسيولوجي لاستجلاء هذه التحولات المختلفة التي لا تقع للشباب فقط، بل حتى لباقي الفئات المجتمعية التي تعيش تدينها بطريقتها الخاصة. ولعل ذلك ما

الخطاب الجديد الذي يحمله المكون الصوفي، خصوصاً في تقوية الحس المدني والمواطني وفي تأدية الواجبات التي بها تنهض التنمية بالبلد؛ إننا إزاء خطاب ثوري للطرق الصوفية في مغرب الألفية الثالثة.

وباعتبار الكتاب من المساهمات الجادة في تقديم رؤى متقاطعة ومتعددة التخصصات بشأن التصوف والطرق الصوفية والجمعيات الدينية في التجارب السوسيو-حضارية والسوسيو-دينية، فإن الباحث المتخصص في التاريخ الروماني مصطفى الغيثي يقدم بحثاً فريداً في نوعه من حيث عنوانه ومن حيث مضمونه، وكذا سياقه التاريخي، إذ هو يتحدث عن «تنظيم الجمعيات الدينية بالغرب الروماني»؛ فمنذ عهد أغسطس، نشأت في الإمبراطورية الرومانية مجموعة من الجمعيات الدينية التي وصل عددها إلى 73 جمعية، وكانت تقوم بأدوار عدة، اقتصادية واجتماعية ودينية، استطاعت من خلالها أن تتجاوز فكرة تقديس الإمبراطور، وهو ما شكّل «خطراً» على الإمبراطورية ككل. فإذا كانت للإمبراطورية واجهة خارجية تتمثل في مواجهة الأعداء الخارجيين، فإن بروز الجمعيات الدينية سيكون بمثابة إيدان بالاعتراف بالدين المسيحي، ديناً رسمياً للدولة، ومن ثم انقسام الإمبراطورية وانهارها لاحقاً. هكذا، فإن الدور المحوري والاستراتيجي للجمعيات الدينية لم يكن ليتوقف عند حد ضمان الحفاظ على النظام الحاكم ممثلاً بالإمبراطور، بل امتد ليحاول تغيير شكل الدين، وبالتالي تغيير شكل الدولة ككل.

بقي أن نشير إلى أن الكتاب تضمن مساهمتين أخريين: إحداهما للباحث إدريس الصنهاجي تحت عنوان «سوسيولوجيا الإسلام بالمغرب»، والثانية للباحث التونسي عادل بلحاج رحومة تحت عنوان «التدين الشبابي: بحثاً عن معنى

في المغرب على إحصاء دقيق للزوايا وللطرق الصوفية وللمنتسبين إليها. ويقي البحث الوحيد الذي أنجز في المرحلة الكولونيالية هو المرجع في هذا المجال<sup>(4)</sup>، للباحث جورج سبيلمان، المعروف بجورج دراك. ولعل هذا الأمر يكشف مدى التحدي الذي يُطرح على «الجماعة العلمية السوسولوجية المغربية» للتفكير في بحث واستقصاء يتعلقان بالظاهرة باستعمال الآليات الكمية والكمية، بغية توفير معطيات ومعلومات جديدة ومحدّثة تساعد الباحثين وعموم المهتمين على فهم الظاهرة الصوفية في المغرب، وفي خارج المغرب أيضًا لأن للطرق الصوفية - كما يعلم الجميع - شبكات علائقية ممتدة عبر ربوع الوطن العربي والإسلامي.

## الهوامش

(1) تشكل كتب مارسيل كوشي أحد النماذج الواضحة لإبراز فرضية العلمنة داخل المجتمعات المعاصرة، وذلك بفك ارتباطها بالدين. للمزيد، انظر: Marcel Gauchet, *Le Désenchantement du monde: Une histoire politique de la religion*, bibliothèque des sciences humaines (Paris: Gallimard, 1985) et (Tunis: Cérès productions, 1995).

(2) انظر بهذا الخصوص، مقالة علمية كان قد أصدرها الباحث الفرنسي المتخصص في سوسولوجيا الأديان: Roger Bastide, «Sociologie des mutations religieuses», *Cahiers internationaux de sociologie*, vol. 44 (1967), pp. 5-16, Consulté le 15/5/2016, at: [http://classiques.uqac.ca/contemporains/bastide\\_roger/socio\\_mutations\\_religieuses/socio\\_mutations\\_religieuses.html](http://classiques.uqac.ca/contemporains/bastide_roger/socio_mutations_religieuses/socio_mutations_religieuses.html).

(3) وجبت الإشارة إلى أن كاتب هذه السطور نشر مساهمة في: رشيد جرموني، «سوسولوجيا التحولات الدينية في المغرب: الفاعل الصوفي نموذجاً»، إضافات: المجلة العربية لعلم الاجتماع، العددان 29-30 (شتاء-ربيع 2015)، ص 108-127، لكن المساهمة الحالية مختلفة عن الأولى بعض الشيء، من حيث التوسع والتعمق في بعض القضايا.

(4) Georges Drague, *Esquisse d'histoire religieuse du Maroc: Confréries et zaouïas*, réédition du texte publié en 1951 sous le pseudonyme de Georges Drague, présentation Jillali el Adnani, les trésors de la bibliothèque; 7 (Rabat: Faculté des lettres et des sciences, 2011).

يجعلنا نستشف من الدراسة أنها تدعو إلى تدبّر بطريقة صوفية، حيث تغيب الرهانات السياسية والمصالح الفئوية والصراعات حول السلطة؛ فالدين لله والوطن للجميع.

## على سبيل الختم: تساؤلات وآفاق للنحاور والنقاش

على الرغم من أهمية الكتاب ورصده بعض التحولات في الحقل الديني المغربي تحديداً، من خلال التركيز على الفاعل الصوفي ودوره في هذه التحولات، وكذا الرهانات والرهنات المضادة التي تتشابك حول هذا الفاعل، سواء من خلال الفاعلين الداخليين (إمارة المؤمنين) أو الخارجيين (الولايات المتحدة الأميركية)، فإن هذه الدراسات والمساهمات ليست سوى منطلقات لاستثارة الباحثين في حقل سوسولوجيا الدين، لركوب مغامرة البحث والتقصي والتتبع لجميع الحثيات والمسارات المعلنة والخفية لهذا الفاعل المهم والحيوي في تاريخ التحولات الدينية في المغرب المعاصر، حيث إن التتبع الدقيق لموضوع الفاعل الصوفي يبيّن وقوع تحوّل دال ومعتبر في أدواره بين الأمس واليوم، وهو ما يشكّل مجالاً للاستكشاف والتقصي.

من جهة أخرى، أصبح الفاعل الصوفي يقوم بأدوار التنشئة الدينية في كثير من الدول، بما فيها دول المهجر (كأوروبا وأميركا)، خصوصاً التنشئة الدينية وفق منظور ورؤية الزوايا البوتشيشية. وإنتاج القيم الدينية وإعادة إنتاجها لا يقتصران على المسلمين/ المهاجرين، بل يشملان حتى الأوروبيين والأميركيين، وغيرهم من الأجناس العرقية والديانات. لهذا، تبقى هذه الجوانب المستجدة في دور الفاعل الصوفي غير مدروسة وغير منتبه إليها حتى الساعة. ومما تجدر الإشارة إليه أننا لا نتوفر